تفاوت

الصوائت العربية في القوة

هدى جنهويتشي

الصين

مقدمة :

تتفاوت الصّوائت العربيّة في القوّة ، والكسر عند العرب أقوى الصّوائت تأثيراً، ومثله صنوه الياء، ثمّ الضمّ وصنوه الواو ، ثمّ الفتح وصنوه الألف. وقد سادت هذه الفكرة في الخطّ العربيّ ، وفي تحريك السّاكن، وفي تصريف الكلمات العربيّة ، وفي بعض الأساليب الإنشائيّة.

فكرة الخفّة والثقل عند العرب [1] :

كرّر القدماء ذكر أنّ الكسر حركة ثقيلة لا خفيفة سواء كان في تحريك أحد السّاكنين أم في مواضع أخرى ، والعرب تتجنّب هذه الحركة كلّما استطاعت وإن كانت قد كثرت في كلامهم ، وكذلك الضّمّ إذ يرونه ثقيلاً مثل الكسر . والنّصوص الّتي تشير إلى هذه الفكرة لا تحصى . فلنرَ مثلاً قول سيبويه :" الفتح أخفّ عليهم من الضّمّ والكسر ، كما أنّ الألف أخفّ من الواو والياء ."[2] وقول ابن جنّي :" والضّمّ أفشى ، ثمّ الكسر ، ثمّ الفتح ."[3] "وقول ابن يعيش :" الألف حرف ضعيف واسع المخرج لا يحتمل الحركة [4] ." وقول ابن مالك : " والضّمّ أفشى ، ثمّ الكسر ثمّ الفتح [5] " . وقول السّيوطيّ : " والفتح أخفّ الحركات ...

---

(١) ومن المحدثين من يرى أنّ فكرة الخفّة أو النقل عند القدماء من إحساس اللغويين الذاتي . انظر : أصول النحو العربي ص : ١٥٠ . غير أن هذا الإحساس قد حل مشكلات صرفية كثيرة في العربية كما رأينا في كتب القدماء .

(٢) كتاب سيبويه ٢٥٨/٢ بولاق = ١١٥/٤ هارون .

(٣) المحتسب ٥٤/١.

(٤) شرح المفصّل ١٢/١٠ .

(٥) شرح الكافية الشّافية ٢٠١١/٤ .

الكسرة بين الضّمّة والفتحة في الثّقل .[1] "

كذلك يرى القدماء أنّ توالي الكسرتين أو الضّمّتين أو الضّمّة والكسرة ثقيل في النّطق وتتجنّبه العرب ، قال سيبويه في هذا :" ... أنّهم كرهوا أن يرفعوا ألسنتهم عن المفتوح إلى المكسور ، والمفتوح أخفّ عليهم ، فكرهوا أن ينتقلوا من الأخفّ إلى الأثقل ، وكرهوا في عُصِرَ الكسرة بعد الضّمّة ، كما يكرهون الواو مع الياء في مواضع . ومع هذا أنّه بناء ليس من كلامهم إلاّ في هذا الموضع من الفعل ، فكرهوا أن يحوّلوا ألسنتهم إلى الاستثقال . وإذا تتابعت الضمّتان فإنّ هؤلاء يخفّفون أيضاً ، كرهوا ذلك كما يكرهون الواوين ، وإنّما الضّمّتان من الواوين ، فكما تُكره الواوان كذلك تُكره الضّمّتان لأنّ الضمّة من الواو . وذلك قولك : الرُّسْل ، والطُّنْب ، والعُنْق تريد الرُّسُل ، والطُّنُب ، والعُنُق . وكذلك الكسرتان تُكرَهان عند هؤلاء كما تُكرَه الياءان في مواضع ، وإنّما الكسرة من الياء ، فكرهوا الكسرتين كما تُكره الياءان . وذلك في قولك في إبِل : إبْل . وأمّا ما توالت فيه الفتحتان فإنّهم لا يسكّنون منه ، لأنّ الفتح أخفّ عليهم من الضّمّ والكسر ، كما أنّ الألف أخفّ من الواو والياء .[2] "

وتشير أقوال القدماء المذكورة إلى أنّ الصّوائت تتفاوت قوةً ، فبعضها أثقل من بعض ، ويكاد القدماء يتّفقون على أنّ الضّمّ هو الأثقل ثمّ الكسر أمّا الفتح فهو الأخفّ .

---

(١) الأشباه والنّظائر ٢/١٧١-١٧٢ .

(٢) كتاب سيبويه ٢/٢٥٨ بولاق = ٤/١١٤-١١٥ هارون ، وانظر أيضا الأصول في النّحو ٣/١٥٨ .

ويُعرف سبب هذا التّفاوت من خلال وصف سيبويه لنصفي الصّوائت وهما الياء والواو إذ قال : " ... ومنها اللّينة ، وهي الواو والياء لأنّ مخرجهما يتّسع لهواء الصّوت أشدّ من اتّساع غيرهما كقولك : وأيٌّ ، والواو وإن شئت أجريت الصّوت ومددت . ومنها الهاوي وهو حرف اتّسع لهواء الصّوت مخرجه أشدّ من اتّساع مخرج الياء والواو ، لأنّك قد تضمّ شفتيك في الواو وترفع في الياء لسانك قِبل الحنك ، وهي الألف . وهذه الثّلاثة أخفى الحروف لاتّساع مخرجها . وأخفاهنّ وأوسعهنّ مخرجاً : الألف ؛ ثمّ الياء ، ثمّ الواو . [1] "

ويتبيّن من قول سيبويه أنّ الألف هو الأخفّ لأنّه أوسع مخرجاً ، وتليها الياء ثمّ الواو لأنّ عمليّة رفع اللّسان قبل الحنك في نطق الياء أخفّ من عمليّة ضمّ الشّفتين في نطق الواو . وإذا كان كذلك فرأي القدماء في أنّ الضّمّ أثقل من الكسر إنّما هو ناشئ من طريقة النّطق . أمّا توالي الكسرتين أو الضّمّتين فهو ثقيل أيضاً عند القدماء ، إلاّ أنّي لم أجد أحداً منهم قد قارن بين ثقل الكسرتين وثقل الضّمّتين .

ومن المحدثين من يخالف القدماء وقال : " توالي حركتين متماثلتين ، كسرتين أو ضمّتين ، يخفّف النّطق بهما أكثر من تخالفهما عندما يجتمع في البناء الواحد ضمّ ، وفتح أو كسر ، وستوي الضّمتان في ذلك والكسرتان ، بدليل أنّهم أجازوا في إتباع حركة العين للفاء في جمع المؤنّث الإتباع بالضّمّ ، وبالكسر ، مثل : سدرات ، وكسرات ، وخطوات وغرفات . [2] "

---

(١) المصدر نفسه ٤٠٦/٢ بولاق = ٤٣٥/٤ - ٤٣٦ هارون .

(٢) أصوات اللّغة العربيّة ص١٨٢ .

ويلاحظ أنّ توالي الكسرتين أو الضّمّتين - مع كونه ثقيلاً وتتجنّبه العرب عند النّطق - موجود في العربيّة بالكثرة ، فرأينا من الأسماء الثلاثيّة صيغة (فُعُل) مثل الطّنُب والعُنُق والعُضُد والجُمُد في الاسم ، والجُنُب والأجُد والنُّكُر في الصّفة [1] . وصيغتي (فُعُلات) و(فِعِلات) المحوّلتين من (فُعْلات) و(فِعْلات) . **وهذا يجعلنا نفكّر فيما يأتي :**

١- إنّ العرب لا يقولون في (فِعِل) سوى إبِل ، وقد صرّح سيبويه بأنّ (فِعِل) قليل و" لا نعرف في الأسماء والصّفات غيره . [2] " وضرب في الوقت نفسه أمثلة كثيرة على صيغة (فُعُل) [3] . ولو كان توالي الكسرتين أخفّ من توالي الضّمّتين لرأينا من الأسماء الثلاثيّة صيغة (فِعِل) أكثر أمثلةً من صيغة (فُعُل) . والأمر عكس ذلك كما رأينا .

٢- يجمع العرب (فُعْلة) و(فِعْلة) على (فُعُلات) و(فِعِلات) بتحريك العين . والتّغيير الصّوتيّ غرضه لطلب الخفّة . فلمَ هذا التّغيير لو كان توالي الكسرتين أو الضمّتين ثقيلاً ؟ .

ويبدو لي أنّ القدماء عندما قالوا إنّ الضّمّ أثقل من الكسر لا يشيرون به إلى أنّ تأثير الكسر في تركيب الفونيمات أضعف من تأثير الضّمّ ، إنّما يريدون أنّ مخرج الكسر أوسع من مخرج الضمّ ، والكسر أسهل من الضّمّ في النّطق . وصرّح القدماء بأنّ العرب تتجنّب

(١) هذه أمثلة في كتاب سيبويه ٣١٥/٢ بولاق = ٢٤٣/٤- ٢٤٤ هارون .

(٢) المصدر نفسه ٣١٥/٢ بولاق = ٢٤٤/٤ هارون .

(٣) المصدر نفسه .

الأصوات الثّقيلة وتميل إلى الأصوات الخفيفة ، وتستثقل توالي الضّمّتين أو الكسرتين ، لكنّهم يعترفون أيضا بوجود أنظمة المماثلة [1] والمخالفة [2] والحذف [3] لتخفيف الأصوات الثّقيلة . بتعبير آخر أنّ الخفّة يمكن الوصول إليها عن طريق هذه الأنظمة . فيجري (الرُّسْل) و(الطُّنْب) و(العُنْق) بسكون العين على نظام الحذف إذ تحذف الضّمّة منها لطلب الخفّة الصّوتيّة . ومثل هذا الحذف يدلّ على أنّ العرب تستثقل توالي الضّمّتين . كذلك قلّة وجود صيغة (فِعِل) في العربيّة تدلّ

---

(١) ذلك مثل قول الصّيمريّ في تعليل فتح نون (أيّان) و(الآن) :" وقد يفتحون بعد الألف للإتباع كما ضمّوا بعد الضّمّة للإتباع " ، انظر التّبصرة والتّذكرة ٧٢٦/٢ . وكذلك قول ابن يعيش :" ... فتقول : اضرِب أُخْرُج اعلَم ، وهذه الهمزة مكسورة لالتقاء السّاكنين إلاّ أن يكون الثّالث مضموما فإنّك تضمّها إتباعا كراهية الخروج من كسر إلى ضمّ ." انظر شرح المفصّل ١١٤/٩-١١٥ .

(٢) ذلك مثل قول رضيّ الدّين في تعليل فتح ميم ﴿ المَ اللّه ﴾ :" وإنّما فتحت إبقاء على تفخيم اللّه تعالى وفرارا من الكسرة بعد الياء والكسرة ." انظر شرح الشّافية ٢٩٣/٢ . وكذلك قول السّيرافيّ في تعليل فتح نون (منَ اللّه) :" وخرج عن قياس نظائره لأنّه كثر في كلامهم هذا الحرف وكان الألف واللاّم كثيرا في كلامهم؛ لأنّه يدخل على كلّ منكور ، والميم مكسورة ، فكرهوا توالي الكسرتين مع الكثرة ، فعدلوا إلى أخفّ الحركات ." انظر إلى شرح السّيرافيّ ٠ صنعاء ، ٢/١ظ .

(٣) ذلك مثل تعليل سيبويه حذف الألف عند التقاء السّاكنين :" وإنّما كرهوا تحريكها لأنّها إذا حرّكت صارت ياء أو واوا ، فكرهوا أن تصير إلى ما يستثقلون فحذفوا الألف ." انظر كتاب سيبويه ٢٧٦/٢بولاق = ١٥٦/٤ هارون . وكذلك قول رضي الدّين في تعليل حذف المدّ عند التقاء السّاكنين:" وإنّما استثقل تحريك المدّ الّذي هو الواو والياء لأنّ المطلوب من المدّ التّخفيف ، وذلك بأن سكن حرف اللّين وجعل ما قبله من جنسه ليسهل النّطق به ، وتحريكه نقض لهذا الغرض ، وأمّا الألف فلا يجيء فيه ذلك ؛ لأنّ تحريكه مستحيل ؛ إذ لا يبقى إذن ألفا ." انظر شرح الشّافية ٢٢٧/٢ .

على ثقل توالي الكسرتين عند العرب . أمّا أن يجمع (فُعْلة) و(فِعْلة) على (فُعُلات) و(فِعِلات) بدلاً من (فُعْلات) و(فِعْلات) فأراه يجري على نظام المماثلة إذ إنّ الضّمّ يفوق السّكون قوّةً في الأوّل ، والكسر يفوق السّكون في الثّاني . وزيادة فونيمات (ـَ ا ت) في (فُعُلات) و(فِعِلات) جعلت توالي الضّمّتين أو الكسرتين أخفّ من توالي الضّمّ والسّكون . وإذا كان كذلك فوراء نظام المماثلة نظام تفاوت الصّوائت في القوّة .

تفاوت الصّوائت قوّة في الخط العربيّ :

سادت فكرة التّفاوت الصّوتيّ في الخطّ العربيّ . وذكر مؤلّفو كتب الإملاء أنّ الكسرة أقوى الحركات ، وتليها الضّمّة ، ثم الفتحة ، ثمّ السّكون . وتكتب الهمزة المتوسّطة حسب حركتها وحركة ما قبلها وترسم على ما يجانس أقوى الحركتين . مثال ذلك أنّ (رِئة) و(سيئة) تكتب الهمزة فيهما على الياء لمجاورتها الكسر وصنوه الياء مع أنّها مفتوحة . ولو كان الفتح أقوى أو يتساوى مع الكسر في القوّة لَكُتبت الهمزة على الألف لا الياء . وأنّ (شُؤْم) تُكتب الهمزة على الواو لمجاورتها الضمّ ، فالهمزة السّاكنة متأثّرة بالمضموم وكُتبتْ على الواو. وأنّ (مُؤَذِّن) تكتب الهمزة على الواو لأنّ الضّمّ يفوق الفتح قوّةً . وأنّ (المَرْأة) و (رَأْس) تكتب الهمزة فيهما على الألف لأنّ الفتح يفوق السّكون قوّة ... وهكذا .

وكذلك تكتب الهمزة في آخر الكلمة وفقاً لهذا النّظام ، مثال ذلك أنّ (يستهزئ) و(يجرُؤ) و(يبدأ) تكتب الهمزة على الياء والواو والألف لمجاورتها الكسر والضّمّ والفتح . وأنّ (شيء) و(هدوء) و(جزاء) تكتب الهمزة مفردة لمجاورتها نصف الصّائت أو الصّائت

الطّويل وهو حرف ساكن عند القدماء .

تفاوت الصّوائت قوّةً في تحريك السّاكن :

أ - في التّحريك بالكسر :

كثيراً ما يحرّك العرب أوّل السّاكنين بالكسر ويعلّلون ذلك بأنّ الكسر هو الأصل لتحريك السّاكن . ومثال ذلك أنّ الباء في (اضربِ ابنَك) والميم في (أكرمِ الرّجل) تحرّكان بالكسر . والكسر هنا عند القدماء هو الأصل . والذي يبدو لي أنّه يجري على نظام التّفاوت الصّوتيّ . ولو لا ذلك لحرّكت الباء والميم بالفتح ، لأنّ العرب تميل إلى الفتح لتجنّب ثقل توالي الكسرتين .

أمّا الأصل الّذي يعنيه القدماء فلا أراه إلاّ بمعنى كثرة الاستعمال إذ تكسّر العرب أحد السّاكنين في حالات كثيرة . وتستعمل الأقوى لتحريك السّاكن إن لم يتأثّر هذا السّاكن بحركة تجاوره [1] ، أو بخاصيّة نفسه [2] .

ب - في تحريك الواو والميم والياء للجماعة والياء للمخاطبة :

تظهر فكرة التّفاوت الصّوتيّ هذا أيضاً في تحريك الميم والواو للجماعة بالضّمّ وياء المخاطبة وياء الجماعة بالكسر في نحو : ﴿ هُمُ الغالبون ﴾ [3] ، واخْشَوُا اللّه ، ومصطفَوُ اللّه ، واخشيِ الرّجلَ ، ومن مصطفَيِ اللّه .

(١) ذلك مثل تحريك الذّال بالضّم في (مُنْذُ) .
(٢) ذلك مثل اواو والميم صنو الضّم فتحرّكان بالضّم ، نحو : اخشَوُ الرّجل ، والياء صنو الكسر فتحرّك بالكسر ، نحو : اخشيِ القوم .
(٣) سورة المائدة ٥٦ .

يرى سيبويه أنّ الواو في (اخشوُا اللّه) مثل واو (مصطفَوُ اللّه) [1] ، تحرّك بالضّمّ ، ولم يفرّق بين اسميّة الأولى وحرفيّة الثّانية . كذلك أنّ الياء في (من مصطفَي اللّه) مثل الياء في (اخشَي الرّجل) [2] تحرّك بالكسر ، ولم يفرّق بين حرفيّة الأولى واسميّة الثّانية .

وقال السّيرافيّ وكان يشرح كلام سيبويه عن تحريك الواو والميم للجماعة : " يعني أنّهم اختاروا أن يكون حركة الياء كسرة ، كما اختاروا أن يكون حركة الواو ضمّة للمشاكلة . وإنّ الكسرة من الياء كما أنّ الضّمّة من الواو . [3] "

وقال الجاربردي عن هذه الضّمّة :" ... فإنّ الضّمّة من جنس الواو ، فهي أشدّ مناسبة لها من غيرها مع أنّ قبلها ياء أو واوا مضمومة محذوفة فتحريكها بحركة الحرف المحذوف أولى ، ونزلوا واو الجمع منزلة واو الضّمير نحو : هؤلاء مصطفَوُ اللّه ، لأنّ كليهما يدلّ على الجمع المذكّر وقبلهما حرف مضموم وهو لام الكلمة . [4] "

ويلاحظ أنّ الميم والواو اللّتين يعدّهما القدماء من صنف الضّمّ ، تضمّان مهما كانت الأصوات المجاورة من الفتح أو الكسر أو الضّمّ أو

---

(١) كتاب سيبويه ٢٧٦/٢ بولاق= ١٥٦/٤ هارون.

(٢) المصدر نفسه ٢٧٦/٢ بولاق= ١٥٥/٤-١٥٦ هارون .

(٣) شرح السّيرافي ، صنعاء ١٠/ ٣ ظ . وكذلك قال الأعلم الشّنتمريّ :" ذكر سيبويه أنّ العلّة في تحريك هذه الواو بالضّمّ أنّ الضّمّة من الواو فحرّكوا بها لمشاكلتها لها . " انظر النّكت في تفسير كتاب سيبويه ١٠٩٥/٢ . وانظر أيضا شرح المفصّل ١٢٥/٩ .

(٤) مجموعة الشّافية ١٦١/١ .

السّكـــون ، نحـــو : (اخـشَـوُا اللّـــه) ، و(مـصطفَـوُ اللّـــه) ، و﴿عليْـهِـمُ القَـتْلُ ﴾ [1] ، و ﴿ لولا ينهـاهُمُ الربّانيّون والأحبـار عـن قـولهِمُ الإثم وأكلهِمُ السُّحـت ﴾[2]، و ﴿ إنْ خفْتـم أنْ يَفْتنَكُمُ الـذين كفـروا ﴾ [3] ، و ﴿ كـيف نبيّنُ لهُـمُ الأيات ﴾ [4].

وحالة ياء المخاطبة أو ياء الجماعة مثل حالة الـواو أو الميم للجماعـة، قال سـيبويه فـي هذا : " وأمّا اليـاء الّتي هـي عـلامة الإضمـار وقبلهـا حرف مـفتوح ، فـهي مكسـورة فـي ألـف الوصل . وذلك : اخشَـي الرّجـل للمرأة لأنّهم لمّا جعلوا حركة الواو من الواو جعلوا حركة اليـاء مـن اليـاء ، فصارت تُجري ههنـا كما تجري الواو ثَمّ . [5] "

ويبـدو لي من خـلال أقوال القدمـاء أنّ ضمّ الميم والواو يجـري علـى نظام المماثلة بين الصّـائت والصّامت ، فالـواو والميم تجانســان الضّمّ عند العرب ، وكذلك الياء تجانس الكسر . وقد اتّفـق القدمـاء على وجود هـذه المجانسـة . فقوّة الميم أو الـواو أثّــرت فـــي لفظها بالضّمّ المجانس لها . كذلك قوّة الياء أثّرت في إتيان الكسر المجانس لها .

تفاوت الصّوائت قوّة في تصريف الكلمات العربيّة :

١ - في الفعل الأجوف المتّصل بضمير الرّفع المتحرّك :

تظهر فكرة تفاوت الصّوائت أيضاً فـــي الفعـل الأجــوف المتّصــل

---

(١) سورة آل عمران ، الآية :١٥٤ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٦٣ .

(٣) سورة النّساء ، الآية :١٠١ .

(٤) سورة المائدة ، الآية : ٧٥ .

(٥) كتاب سيبويه ٢٧٦/٢ بولاق=١٥٥/٤- ١٥٦هارون .

بضمير الرّفع المتحرّك مثل (خِفْتُ وبِعْتُ وقُلْتُ) . وقد علّل ابن جنّي في هذه الحالة قائلاً :" فهذه معاملة على الأصل الأقرب دون الأبعد ؛ ألا ترى أنّ أصلهما (يعني بِعْتُ وقُلْتُ) فَعَلَ بفتح العين : بَيَعَ وقَوَلَ ، ثمّ نقلا من فَعَلَ إلى فَعِلَ وفَعُلَ ، ثمّ قلبت الواو والياء في فعلت ألفاً ، فالتقى ساكنان : العين المعتلّة المقلوبة ألفاً ، ولام الفعل ، فحذفت العين لالتقائهما، فصار التّقدير : قَلْت وبَعْتُ ، ثمّ نقلت الضّمّة والكسرة إلى الفاء ؛ لأنّ أصلهما قبل القلب : فعُلت وفعِلت ، فصار بِعْتُ وقُلْتُ ، فهذا - لعمري - مراجعة أصل إلاّ أنّه ذلك الأصل الأقرب لا الأبعد ؛ ألا ترى أنّ أوّل أحوال هذه العين في صيغة المثال إنّما هو فتحة العين الّتي أبدلت منها الضمّة والكسرة ، وهذا واضح [1]. "

وبناء على قول ابن جنّي يتبيّن أنّ مراحل كلّ من الكلمتين في الإعلال والإبدال كما يأتي : بَيَعَ ، بَيِعَ ، بَاعَتُ ، بَعْتُ ، بِعْتُ ، كذلك قَوَلَ ، قَوُلَ ، قَالَتُ ، قَلْتُ ، قُلْتُ ، إذ فرض ابن جنّي أصلين لكل كلمة : أحدهما الأبعد والآخر الأقرب .

ويلاحظ في هذه المسألة أنّ (قُلْتُ) من قَوَلَ على وزن (فَعَلَ) والواو محذوفة لالتقاء السّاكنين ، وضمّة القاف بعد حذف الواو تدلّ على تأثّر القاف بالواو تأثّرا مدبرا لأنّ الواو أكثر قوّة من الفتح . وكذلك كسرت الباء في (بِعْتُ) تأثّراً بالياء الّتي بعدها تأثّراً مدبراً ؛ لأنّ قوّة الياء تفوق الفتح في عين (فَعَلَ) . أمّا (خِفتُ) فهو من أصل (خَوِفَ) على وزن (فَعِلَ) ، كسرت الخاء في (خِفْتُ) لأنّ الكسر في عين الفعل يفوق فتح الفاء قوةً كما ذكرت . وكلّ هذا يدلّ على أنّ الصّوائت تتفاوت في القوّة .

(١) الخصائص ٢/٣٤٣- ٣٤٤ .

٢ - في قلب الواو ياء :

قال سيبويه في قلب الواو ياء :" هذا باب ما تقلب الواو فيه ياء إذا كانت متحرّكة والياء قبلها ساكنة ، أو كانت ساكنة والياء بعدها متحرّكة. وذلك لأنّ الياء والواو بمنزلة الّتي تدانت مخارجها لكثرة استعمالهم إيّاهما وممرّهما على ألسنتهم ، فلمّا كانت الواو ليس بينها وبين الياء حاجز بعد الياء ولا قبلها ، كان العمل من وجه واحد ورفع اللّسان من موضع واحد ، أخفّ عليهم . وكانت الياء الغالبة في القلب لا الواو ؛ لأنّها أخفّ عليهم ، لشبهها بالألف . وذلك قولك في فَيْعِل : سيِّد وصيّب ، وإنّما أصلهما سَيْوِد وصَيْوِب . [١] "

وقال المبرّد :" ... حكم الواو والياء إذا التقتا والأولى منهما ساكنة ، أن تقلب الواو إلى الياء ، وتدغم إحداهما في الأخرى ، فأمّا ما كان من هذا ياؤه بعد واوه فنحو : لَوَيته ، وشوَيْته ليّة وشيّا إنّما كانا لَوْيَة ، وشَوْيا ؛ لأنّ العين واو ، وكذلك (مرميّ) فاعلم إنّما هو مَرْمُوي ؛ لأنّ اللاّم ياء وقبلها واو مفْعول . [٢] "

وقال رضيّ الدّين :" اعلم أنّ الواو إذا كانت ساكنة غير مدغمة وقبلها كسرة ، فلا بدّ من قلبها ياء ، سواء كانت فاء كميقات ، أو عيناً نحو : قِيل ؛ وأمّا إذا كانت لامًا فتقلب ياء وإن تحرّكت كالدّاعي ؛ لأنّ اللاّم محلّ التّغيير ... [٣] "

---

(١) كتاب سيبويه ٣٧١/٢ بولاق=٣٦٥/٤ هارون .

(٢) المقتضب ١٧٢/١ .

(٣) شرح الشّافية ٨٣/٣-٨٤ ، وانظر أيضا المقتضب ٩٢/١، ١٣١ .

ويلاحظ أنّ الياء عند القدماء أخفّ من الواو ، فقلب الواو ياء في مثل (سيّد) و(ميقات) و(قيل) و(الدّاعي) و(قيام) و(ثِياب) و(مَرْمِيّ) للتّخفيف الصّوتيّ . وهذا يدلّ على أنّ تأثير الياء أقوى من تأثير الواو في تركيب الكلمة ، فقد تحوّلت الواو إلى الياء في كلّ هذه الأمثلة متأثّرة بكسرة أو ياء تجاورها تأثّراً مقبلاً أو مدْبراً .

٣ - في تحريك العين في جمع (فُعْلة) بضمّ الفاء وكسرها :

قال سيبويه في هذا :" وأمّا ما كان (فُعْلة) فإنّك إذا كسرته على بناء أدنى العدد ألحقت التّاء ، وحرّكت العين بضمّة ، وذلك قولك : رُكْبة ورُكُباتٌ ، وغُرْفة وغُرُفات وجُفْرة وجُفُرات ... [1] " وكذلك ما كان على (فِعْلة) يجمع على (فِعِلات) ، مثل : قِربات وسِدِرات ، وكِسِرات " [2] .

والتّغيير هذا كما يبدو لي يجري على نظام التّفاوت الصّوتيّ إذ يفوق الكسر أو الضّم السّكون ، فحرّكت العين بالكسر أو الضّم لمماثلة الصّوت الأقوى .

٤ - في حذف واو مفعول المعتلّ في مثل (مبيع) :

قال سيبويه :" ويعتلّ مفعول منهما كما اعتلّ فُعِلَ ، لأنّ الاسم على فُعِلَ مفعول ، كما أنّ الاسم على فعَلَ فاعِل ... وتقول في الياء : مَبِيع ومَهيب ، أسكنت العين وأذهبت واو مفعول ، لأنّه لا يلتقي ساكنان وجُعلت الفاء تابعة للياء حين أسكنتها كما جعلتها تابعة في بِيض ، وكان ذلك أخفّ عليهم من الواو والضّمّة فلم يجعلوها تابعة للضّمّة ، فصار

---

(١) كتاب سيبويه ٢/١٨١-١٨٢ بولاق = ٣/٥٧٩ هارون .

(٢) المصدر نفسه ٢/١٨٢ بولاق = ٣/٥٨٠-٥٨١ هارون .

هـذا الوجـه عندهم ، إذ كـان من كـلامـهم أن يقلبـوا الـواو ياء ولا يتبعوها الضّمّة فراراً من الضّمّة ، والواو إلـى الياء لشبههـا بالألـف ، وذلك قولهم : مَشُوبٌ ومَشِيبٌ ، وغارٌ مَنُول ومَنيل ، ومَلوم ومَلِيم . [1] "

وقد وضّح سيبويه من خلال قوله هذا أنّ حذف واو (مبيُوع) وكسر بائه لطلب الخفّة وللفرار من الضّمّة إذ الكسر عنده أخفّ مـن الضّمّ . والّذي يبدو لي أنّ حذف الواو وكسر فاء الكلمة في مثل (مبيع) أُجري على نظام تفـاوت الصّـوائت فـي القـوّة ، إذ إنّ اليـاء أقـوى مـن الواو تأثيراً ، فحذف الواو من (مبيُوع) لتجنّب توالي الياء والواو ، وكسر الباء لتفوّق الياء على الضّمّ قوّة .

٥ - في جمع الاسم المنقوص :

قال خالد الأزهريّ في جمع الاسم المنقوص :" (القاضُون والدّاعُون) والأصل فيهما القـاضيون والدّاعيون ، حذف ضمّة الياء للاستثقال ، ثمّ حذفت اليـاء لالتقاء السّاكنين ، وحذفت الكسـرة الّتـي كانت قبل اليـاء لئلا يلزم قلب الـواو ياء لوقوعهـا سـاكنـة إثر كسـرة ، ثمّ عـوض مـن الكسرة الضّمّة لمناسبة الواو ، وإن شئت قلت استثقلت الضّمّـة علـى الياء فيهما ، فنقلت منها إلى مـا قبلهـا بعد سلب حـركـة مـا قبلها ، ثـمّ حذفت اليـاء لالتقاء السّاكنين . [2] "

---

(١) المصـدر نفسـه ٣٦٣/٢ بـولاق = ٣٤٨/٤ هـارون . وقـد قـال السّـيـوطـيّ فـي الأشبـاه والنّظائر ٤٩/١ إنّ مـذهـب الخليل وسيبويه حـذف عين الكلمـة ، وهـو سهو منه .

(٢) التّصريح على التّوضيح ٢٩٦/٢ .

يلاحظ من كلام الأزهريّ هنا أنّ حذف الكسرة قبل ياء (القاضِيون) " لئلا يلزم قلب الواو ياء لوقوعها ساكنة إثر كسرة " ، يعني به تجنّب تأثير الياء ، فالياء أقوى تأثيراً من الواو . وسبب تجنّب تأثير الياء هنا - كما أرى - أنّ واو الجماعة تحمل وظيفة التّعبير عن معنى الجمع في (القاضون) فلا تحذف . أمّا الياء فتحذف لأنّها حرف لا يحمل معنى .

تفاوت الصّوائت قوّة في بعض الأساليب الإنشائيّة :

تستعمل العرب الفتح للتّعبير عن النّدبة ، نحو : وازيداه . وذلك لخفّته في القوّة . وتستعمل الكسر للتّعبير عن الإنكار ، نحو قولك في جواب من قال : رأيت بكراً : أبكرِنيه ، ذلك لقوّة الكسر .

١ - في النّدبة :

تستعمل العرب الفتح وصنوه الألف في النّدبة للتّعبير عن المعنى الانفعاليّ في التفجّع لأن الفتح هو الأخفّ في القوّة . قال سيبويه في هذا :" اعلم أنّ المندوب مدعوّ ولكنّه متفجّع عليه ، فإن شئت ألحقت في آخر الاسم الألف ، لأنّ النّدبة كأنّهم يترنّمون فيها ... واعلم أنّ الألف الّتي تلحق المندوب تُفتح كلّ حركة قبلها مكسورة كانت أو مضمومة لأنّها تابعة للألف ، ولا يكون ما قبل الألف إلاّ مفتوحاً . [1] "

كذلك يقول العرب في حذف ألف الأصل إنْ ندبتَ (مُثنّى ويحيَى) وما أشبههما من المقصور من غير الإضافة : وامُثنّاه ووايحْياه . وذلك تقصير المدّة إذ التقى الألف بالألف . قال السّيرافيّ في ذلك :" وإذا ندبت ما آخره ألف ، ولم تضفه إلى نفسك ، وأدخلت علامة النّدبة ،

(١) كتاب سيبويه ٣٢١/١ بولاق = ٢٢٠/٢ هارون .

أسقطت ألف الأصل لاجتماع السّاكنين ، فقلت : وامثاه ووامعلاه . وإنّما سقطت الألف لأنّها لا تتحرّك كتحرّك الياء إذ كانت الياء تفتح والألف لا يدخلها حركة . [1] "

والحقّ أنّي لا أرى في تعليل القدماء هذا مقنعاً ، فالألف قد تقلب ياءً وتحرّك في المواضع الأخرى مثل تثنية الاسم المقصور ، نحو : مصطفيان ومصطفيَين . ويبدو لي أنّ حذف الألف في هذه المسألة إنّما يرجع إلى أثر الأسلوب الانفعاليّ في نفس المتكلّم ، ذلك أنّ العرب يستعملون الفتح وصنوه الألف للتّعبير عن التّفجّع .

٢ - في الإنكار :

ذكر ابن جنّي في (باب حرف اللّين المجهول) كسر نون التّنوين مع زيادة مدّة الإنكار :" وذلك مدّة الإنكار ؛ نحو قولك في جواب من قال : رأيت بكرا : أبكرِنيه ، وفي جاءني محمّد : أمحمّدُنيه ، وفي مررت على قاسم : أقاسمِنيه ! وذلك أنّك ألحقت مدّة الإنكار ، وهي لا محالة ساكنة ، فوافقت التّنوين ساكناً ، فكسر لالتقاء السّاكنين فوجب أن تكون المدّة ياء لتتبع الكسرة . وأي المدّات الثّلاث كانت فإنّها لا بدّ أن توجد في اللّفظ بعد كسرة التّنوين ياء ؛ لأنّها إن كانت في الأصل ياء فقد كُفِينا النّظر في أمرها ، وإن كانت ألفاً أو واواً فالكسرة قبلها تقلبها إلى الياء البتّة . [2] "

---

(١) شرح السّيرافيّ ، صنعاء ٥/٥٧ و، وانظر أيضا التّبصرة والتّذكرة ١/٣٦٤ .

(٢) الخصائص ٣/١٥٤ .

وقال ابن يعيش :" نحو قولك في جواب من قال : هذا زيد : (أزيدُنيه) فالدّال مضمومة محكية ، وحركتها إعراب والتّنوين متحرّك بالكسر ، وحركتها بناء لالتقاء السّاكنين . وكذلك النّصب والجرّ نحو قولك في ضربت زيدا : أزيدَنيه ، بفتح الدّال ، وفي : مررت بزيد : أزيدِنيه ، بكسر الدّال والتّنوين مكسور لالتقاء السّاكنين ، والمدّة بعدها ياء الكسرة قبلها . [1] "

ويخيّل إليّ أنّ الاستفهام الإنكاريّ يتطلّب القوّة الصّوتيّة للتّعبير عن المعنى الانفعاليّ ، والكسر يؤدّي هذه الوظيفة كما ذكرت .

ونستبين ممّا سبق أنّ القدماء قد أشاروا في كتبهم إلى أنّ الصّوائت العربيّة تتفاوت في الثّقل ، والفتح عندهم الأخفّ ، ثمّ الكسر ، ثمّ الضّمّ ، وكذلك أكّدوا ثقل الكسرتين أوالضّمّتين أو الضّمّة والكسرة . ويرون أنّ العرب تتجنّب بعض الصّوائت وتميل إلى الأخرى طلباً للخفّة ، وقد حلّت فكرتهم هذه كثيراً من المشكلات الصّرفيّة . مثال ذلك أنّ الواو تقلب ياء في (سيِّد) لأنّ الياء أخفّ من الواو ، وأنّ العرب تقول (العُنْق) بتخفيف عين (فُعُل) كراهية توالي الضّمّتين ، وأنّ صيغة (فِعِل) لم ترد في العربيّة سوى كلمة (إبِل) لأنّ توالي الكسرتين ثقيل ، وكلّ هذا يبنى على فكرة الخفّة . ولكن الّذي يبدو لي من خلال هذه الدّراسة أنّ طلب الخفّة لا يعلّل جميع الأحوال في تغيير الصّوائت . مثال ذلك أنّ العرب تجمع (فِعْلة) و(فُعْلة) على (فِعِلات) و (فُعُلات) بتوالي الكسرتين والضّمّتين مع أنّه ثقيل

(١) شرح المفصّل ٩/٥١ .

عندهم . ويظهر هذا التّناقض أيضاً في مواضع أخرى ، كأن تكتب همزة (شُؤَم) على الواو لا الألف مع أنّ الهمزة مفتوحة لا مضمومة والفتح عندهم أخفّ من الضّمّ ، وأن تكسر فاء (خِفْتُ) مع أنّ أصل عين الكلمة واو مثل عين (قُمْت) . بناء على هذا يمكنني أن أقول إنّ هناك ظاهرة أخرى تتعلّق بفكرة الخفّة وتساعد على فهم تغيير الصّوائت العربيّة ، وهي " تفاوت الصّوائت العربيّة في القوّة " إذ يبدو الكسر وصنوه الياء أقوى تأثيراً ، ثمّ الضّمّ وصنوه الواو ، ثمّ الفتح وصنوه الألف . والله أعلم ..

المراجـــع :

- **الأزهريّ ، خالد بن عبد اللّه** . التّصريح على التّوضيح على ألفيّة ابن مالك . القاهرة : مطبعة البابي الحلبيّ ، (د . ت)
- **الإستراباذيّ ، رضيّ الدّين محمّد بن الحسن** . شرح شافية ابن الحاجب ، تحقيق محمّد نور الحسن وزميليه . بيروت : دار الكتب العلميّة ، ١٩٧٥م .
- **الأعلم الشّنتمريّ ، أبو الحجّاج يوسف بن سليمان بن عيسى** . النّكت في تفسير كتاب سيبويه ، تحقيق عبد المحسن سلطان . الكويت : المنظّمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم ، ١٩٨٧م ، ط١ .
- **بشر، كمال** . الأصوات العربيّة . القاهرة : مكتبة الشّباب ، (د . ت) .
- **الجاربردي** . مجموعة الشّافية من علمي الصّرف والخطّ بيروت : عالم الكتب ، ١٩٨٤م ، ط٣ .
- **ابن جنّيّ ، أبو الفتح عثمان :**
  - الخصائص ، تحقيق محمّد عليّ النّجّار . بيروت : دار الهدى، ١٩٥٢م ط٢ .
  - المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، تحقيق عليّ النّجديّ ناصف (ش) . القاهرة ، ١٣٨٦ هـ .
- **ابن السّرّاج ، أبو بكر محمّد بن سهل** . الأصول في النّحو ، تحقيق عبد الحسين الفتلي . بيروت : مؤسّسة الرّسالة ، ١٩٨٥م ، ط١ .
- **سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان :**
  - الكتاب ، تحقيق عبد السّلام هارون . القاهرة : دار القلم ،١٩٦٦م .
  - الكتاب . القاهرة : المطبعة الكبرى الأميريّة ، بولاق ، ١٣١٦هـ ، ط١ .
- **السّيرافيّ ، أبو سعيد بن عبد اللّه بن المرزبان** . شرح كتاب سيبويه . دار المخطوطات ، صنعاء ٢١١ ، مصوّرة خاصّة منقولة عن مصوّرة المخطوطات العربيّة ، الكويت .
- **السّيوطيّ ، جلال الدّين عبد الرّحمن بن أبي بكر** . الأشباه والنّظائر في النّحو . بيروت : دار الكتب العلميّة ، ١٩٨٤م ، ط١ .

- **الصّيمريّ ، أبو محمّد عبد اللّه بن علي .** التّبصرة والتّذكرة ، تحقيق فتحي أحمد مصطفى عليّ الدّين . دمشق : دار الفكر ، ١٩٨٢م ، ط١ .
- **عبد التّوّاب ، رمضان .** التّطوّر النّحويّ للّغة العربيّة . القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٩٧م ، ط٣ .
- **عمر ، أحمد مختار:**
  - البحث اللّغويّ عند العرب . القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٩٧م ط٧ .
  - دراسة الصّوت اللّغويّ . القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٩٧م .
- **عيد ، محمّد .** أصول النّحو العربيّ في نظر النّحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللّغة الحديث . القاهرة : عالم الكتب ، ١٩٩٧ ، ط ٦ .
- **الفراهيديّ ، الخليل بن أحمد .** العين ، تحقيق مهدي المخزومي (ش) . بيروت : مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات ، ١٩٨٨م . ط١ .
- **ابن مالك ، جمال الدّين أبو عبد اللّه محمّد بن عبد اللّه .** شرح الكافية الشّافية ، تحقيق عبد المنعم أحمد هريري . مكّة المكرّمة : دار المأمون للتّراث ، ١٩٨٢م و ط١ .
- **المبرّد ، أبو العباس محمّد بن يزيد .** المقتضب ، تحقيق محمّد عبد الخالق عضيمة . بيروت : عالم الكتب ، ١٩٦٣م .
- **ابن هشام ، أبو محمّد عبد اللّه جمال الدّين .** مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد . بيروت : دار إحياء التّراث العربيّ ، (د . ت) .
- **هلال ، عبد الغفّار حامد .** أصوات اللّغة العربيّة . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٩٦م ، ط٣ .
- **ابن يعيش ، موفق الدّين يعيش بن عليّ .** شرح المفصّل . بيروت : عالم الكتب، (د . ت) .